

المقتطف والمتنبى

المقتطف شيخ مجلانا ؛ كأمن أولاده وأحفاده . وهو كالجدة الأكبر ، زمن يجتمع ، وتاريخ يتراكم ، وانفراد لا يلحق ، وعلم يزيد على العلم بأنه في الذات التي تفرض إجلالها فرضاً ، ونجب لها الحرمة وجوباً ، ويتضاعف منها الاستحقاق فيتضاعف لها الحق

وهل الجد إلا أبوة فيها أبوة أخرى ، وهل هو إلا عرش حتى درجانه الجيل تحت الجيل ، وهل هو إلا امتداد مسافات العصر فوق العصر ؟

والمقتطف يكبر ولا يهرم ، ويتقدم في الزمن تقدم المحترعات ماضية بالنواميس إلى النواميس ، مقيدة بالبدأ إلى الغاية . فلقد أشبه هذا المقتطف وما في المجلات العربية ما يعني عنه ، ثم أسهمت الدنيا حوله بأخلاقها وطباعها ، وتحولت مجلات كثيرة إلى مثل الرانصات والغنيات والمثلثات وبقى هو على وقائه لبدنه الملقى والسمو فيه والسمو به ، كأما أخذ عليه في العلم والأدب ميثاق كيثاق النبيين في الدين والفضيلة ؛ فبين يديه الواجب لا الفرض ، وهمة الابداع بقوى العقل لا الاحتمال بها ، وهدية الحقيقة الثابتة في الدنيا لا الأحلام المتقلبة بهذه الدنيا ، وطريقه في كل ذلك طريق الفلاسوف من هدوء نفسه لا من أحوال الدهر ، فهو ماضٍ على اليقين ، نافذ إلى الثقة ، متنقل في منزلة منزلة من يقينه إلى ثقته ، ومن ثقته إلى يقينه

وقد بدأ المقتطف مجلده الثامن والثمانين بسد ضخمة أفرد له لتتنبى . ولئن كانت الأدبية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم ، فما أحسب إلا أن روح الشاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف

ولست أغلو إذا قلت إن هذه الروح المتكبرة قد أظهرت كبرياءها مرة أخرى ، فاعزلت المشهودين من الكتاب والأدباء ولزمت صديقنا التواضع الأستاذ محمود شاكر مدة كتابته هذا البحث النفيس الذي أخرجه المقتطف في زهاء ستين ومائة صفحة تدلّه في تفكيره ، وتوحى إليه في استنباطه ، وتنهيه في شعوره ، وتبصره أشياء كانت خافية وكان العدق فيها ، ليردّها على أشياء كانت معروفة وكان فيها الكذب ، ثم تميته بكل ذلك على أن يكتب الحياة التي جاءت من تلك النفس ذاتها ، لا الحياة التي جاءت من نفوس أعدائها وحسادها

ولقد كان أول ما خطر لي بعد أن مضيت في قراءة هذا

العدد — أن المؤلف جاء بما يصح القول فيه إنه كتب تاريخ المتنبى ولم ينقله ؛ ثم لم أكد أمن في القراءة حتى خيل إلى أنه قد وضع لشعر المتنبى بعد تفسير الشراح المتقدمين والمتأخرين تفسيراً جديداً من المتنبى نفسه ؛ وما الكلمة الجديدة في تاريخ هذا الشاعر الغامض إلا الكلمة التي نشرها المقتطف اليوم

إن هذا المتنبى لا يفرغ ولا ينتهي ، فإن الإعجاب بشعره لا ينتهي ولا يفرغ . وقد كان تمسا عظيمة خلقها الله كما أراد ، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت . فكأما جعلها بذلك زمناً يمتد في الزمن

وكان الرجل مطوياً على سر ألقى الغموض فيه من أول تاريخه ، وهو سر نفسه ، وسر شعره ، وسر قوته ؛ وبهذا السر كان المتنبى كالملك المنصوب الذي يرى التاج والسيف ينتظران رأسه جميعاً ، فهو يتقى السياف بالحذر والتلف والغموض ، ويطلب التاج بالكتمان والحيلة والأمل

ومن هذا السر بدأ كاتب المقتطف فجاء بمحسه يتعذر في نسق عجيب متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادة ونمو وشباب ، وعرض بين ذلك شعر أبي الطيب عرضاً خيلاً إلى أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها . وبذلك انكشف السر الذي كان مادة التحويل في ذلك الشعر الفخم إذ كانت في واعية الرجل دولة أضخم دولة عجز عن خلقها وإيجادها تخلفها شعراً أضخم شعر ، وجاءت مبالغاته كأنها كاذب آماله البعيدة متحققة في صورة من صور الامكان اللغوي

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبى سر حبه ، فقال : إنه كان يحب خولة أخت الأمير سيف الدولة ، وكتب في ذلك خمس عشرة صفحة كبيرة ، وكأنها لم ترضه فقال إنه كان يؤمل أن يكتب هذا الفصل في خمسين وجهاً من المقتطف . وهذا الباب من غرائب هذا البحث ، فليس من أحد في الدنيا المكتوبة (أي التاريخ) يعلم هذا السر أو يظنه . والأدلة التي جاء بها المؤلف تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفي ؛ ومتى لم يستطع المرء نفيًا ولا إثباتًا في خبر جديد يكشفه الباحث ولم يهتد إليه غيره ، فهذا حبسك إعجاباً بذكر ، وهذا حسبه فوزاً بعد ولعمري لو كنت أنا في مكان المتنبى من سيف الدولة لقلت إن المؤلف قد صدق ... فهناك موضع لا بد أن يبحث فيه القلب الشاعر الذي وضعت في الدنيا حكمتها ، وطوت فيه القوة سرها ، وبث فيه الجلال وحيه ، وأضمر هذه الثلاث أكبر من الملوك والممالك ، ولكن الحبيبة أكبر منها كلها